فَصْلٌ فِي أَسْبَابِ شَرْحِ الصُّدُورِ من زاد المعاد

للعلَّامة أبي بكر ابن قيّم الجوزيّة

رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى

تعليق

فضيلة الشّيخ محمّد أمان الجامي

رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى

نسخة إلكترونيَّة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمدُ للهِ ربِّ الْعَالمين والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلىٰ رسولِ اللهِ وعَلىٰ آلهِ وصحبهِ أجمعين.

أمّا بعد:

قال الإمام الحافظ ابن قيّم الجوزيّة رَحِمَهُ اللهُ في كتابهِ زادِ المعادِ في هديِ خيرِ العبادِ:

(فَصْلٌ فِي أَسْبَابِ شَرْحِ الصّدُورِ وَحُصُولِهَا عَلَىٰ الْكَمَالِ لَهُ ﷺ:

فَأَعْظَمُ أَسْبَابِ شَرْحِ الصّدْرِ التّوْحِيدُ وَعَلَىٰ حَسَبِ كَمَالِهِ وَقُوّتِهِ وَزِيَادَتِهِ يَكُونُ انْشِرَاحُ صَدْرِ صَاحِبِهِ. قَالَ اللّهُ تَعالَىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزّمَرُ 22]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الْأَنْعَامُ 125] فَالْهُدَىٰ وَالتّوْحِيدُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ شَرْحِ الصّدْرِ وَالشّرْكُ وَالضّلَالُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ضِيقِ الصّدْرِ وَانْحِرَاجِهِ وَمِنْهَا: النّورُ الّذِي يَقْذِفُهُ اللّهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ وَهُوَ نُورُ الْإِيمَانِ فَإِنّهُ يَشْرَحُ الصّدْرَ وَيُوَسّعُهُ وَيُفْرِحُ الْقَلْبَ. فَإِذَا فُقِدَ هَذَا النّورُ مِنْ قَلْبِ الْعَبْدِ ضَاقَ وَحَرِجَ وَصَارَ فِي أَضْيَقِ سِجْنٍ وَأَصْعَبِهِ).

الحمد لله ربّ العالمين، وصلاة الله وسلامه ورحمته وبركاته علىٰ هذا النبيّ الكريم نبيّنا محمّد وعلىٰ آله وأصحابه وأزواجه أمّهات المؤمنين وأهل بيته الطّيبين الطّاهرين وبعد:

في هذه المناسبةِ الكريمةِ نهنّئ إخواننا المسلمين المجتمعين في المسجد النّبويّ بل وجميع المسلمين بهذا الشّهر المبارك، ونسأل الله لنا ولهم دوام التّوفيق، ونسأله تعالىٰ أن يرزقنا صيام هذا الشّهر المبارك وقيام لياليه إيمانًا واحتسابًا ثمّ أمّا بعد:

فنتدارسُ فيما بيْننا في بعض المواضيع المهمّة التي تهمّ المسلم في عبادته وفي صلته بربّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتاب: «زَادِ المَعَادِ فِي هَدْيِ خَيْرِ الْعِبَادِ» للعلّامة ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ.

يقول العلّامة ابن القيّم:

(فَصْلٌ فِي أَسْبَابِ شَرْحِ الصُّدُورِ وَحُصُولِهَا عَلَىٰ الْكَمَالِ لَهُ ﷺ: فَأَعْظَمُ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ التَّوْحِيدُ) فمن يُريد أنْ يشرحَ اللهُ له صدرَهُ يسأل ربّه ﷻ أنْ يرزقَه التّوحيدَ، (وَعَلَىٰ حَسَبِ كَمَالِهِ وَقُوَّتِهِ وَزِيَادَتِهِ يَكُونُ انْشِرَاحُ صَدْرِ صَاحِبِهِ) علىٰ حَسَبِ كمال توحيدِ المرء وقوّة توحيده وزيادة توحيده يكون انشراحُ صدرِ صاحبه.

هل التّوحيد يزيد؟ نعم؛ لأنّ المراد بالتّوحيد هو الإيمان، الإيمان: اعتقادٌ بالقلب وقولٌ باللّسان وعملٌ بالجوارح، الأساسُ في الإيمانِ: الإيمان القلبيّ وهذا الإيمان القلبيّ يزيد وينقص ويضعف ويقوىٰ وعلىٰ حسب كمال توحيد المرء وكمال إيمانه وقوّة إيمانه، وزيادة إيمانه يكون انشراح صدر صاحبه للإسلام، (قَالَ اللّٰهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [الزّمَرُ 22]) لَيْس هو كغيره، من شَرَحَ اللهُ صدرَه للإسلام، وأحبّ الإسلام، واطمأنّ إلىٰ الإسلام وجعله الله علىٰ نور من ربّه، الإيمان نفسه نور؛ نورٌ من الله يقذفه الله في قلوب من شاء من عباده (وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾) من أراد الله له الهداية، -المراد بالهداية هنا هداية التّوفيقِ والإلهامِ- من يُرِدِ اللهُ له أن يهديه هدايةَ التوفيق والإلهام يشرحُ صدرَه للإسلام، يشرحُ صدره ويوسّع صدره ويحبّ الإسلام (﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الْأَنْعَامُ 125]) الإرادة هنا: الإرادة الكونيّة لَيْس الإرادة الشّرعية، (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ): من سَبَقَ في عِلْمِ الله تعالىٰ ضلالُه وشقاوتُه ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ يرىٰ الإسلام صعبًا عليه جدًّا كالذي يُحاول أن يتصعّد في السّماء بدون سُلّمٍ وما أصعبه، هكذا يكون الإسلامُ أمامه، من أراد الله ضلاله وشقاوته بالإرادة الكونيّة، (فَالْهُدَىٰ وَالتَّوْحِيدُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ)، ومن رَزَقَه اللهُ توحيده، إخلاصُ العبادة له ومن شَرَحَ الله صدره

وهداه ووفّقه ينشرح صدره للإسلام. وأمّا (الشِّرْكُ) اتّخاذ النّدّ مع الله، وتعلّق القلب بغير الله ومخافةُ غير الله، ورجاء غير الله، والاعتماد علىٰ غير الله من أسباب الضّلال ومن (أَسْبَابِ ضِيقِ الصّدْرِ)، من وَكَلَه الله إلىٰ نفسه أو إلىٰ أحدٍ سواه؛ طمعه في غير الله، ورجاؤه في غير الله، وخوفه من غير الله، ومحبّته لغير الله، من ابتُلي هذا الابتلاء فَقَدَ انشراح الصّدر، وأُصيبَ بضيق الصّدر ويعيش دائمًا في قلقٍ ولا يجد طمأنينةً و [لا] راحةً، والعبدُ الذي رزقه اللهُ التّوكّلَ عليه والخوفَ منه ومحبّته ومراقبتَه والشوقَ إليه والأُنسَ به هو الذي يعيش مرتاحًا؛ مرتاح البالِ في الدّنيا ولَا تُؤثّر فيه مشاكلُ الدّنيا ومصائبُها، لا شيءَ يحولُ بيْنه وبيْن السّيرِ إلىٰ الله وليس معنىٰ ذلك أنّ المتوكّلين علىٰ الله وأن الصّادقين مع الله لا تُصيبهم المصائب ولا تحلّ بهم النوازل لا، قد يكونون أشدّ النّاس امتحانًا، «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ»[1] ولكن ما هُمْ فيه من الاطمئنانِ إلىٰ الله ومن محبّة الله ومراقبة الله، هذه المعاني تهوّن عليهم مشاكلَ الدُنيا ومصائبَها وما يُصيبهم من البلاء.

(وَمِنْهَا) من تلكم الأسباب -أسباب انشراح الصّدر-: (النّورُ الّذِي يَقْذِفُهُ اللّهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ وَهُوَ نُورُ الْإِيمَانِ) الذي يُورثُه محبّةَ اللهِ ومراقبة الله والخوف من الله (وَهُوَ نُورُ الْإِيمَانِ فَإِنّهُ يَشْرَحُ الصّدْرَ وَيُوَسّعُهُ وَيُفْرِحُ الْقَلْبَ) وهو ليس في نكدٍ دائمًا، (فَإِذَا فُقِدَ هَذَا النّورُ مِنْ قَلْبِ الْعَبْدِ) النّورُ الذي يقذفه الله في قلوبِ من شاء من عباده (إِذَا فُقِدَ هَذَا النّورُ مِنْ قَلْبِ الْعَبْدِ ضَاقَ) ووقَع في حرجٍ وفي ضيقٍ وفي نكدٍ (وَصَارَ فِي أَضْيَقِ سِجْنٍ وَأَصْعَبِهِ) وهو يحسبُ أنّه يعيش خارج السّجن ولكنّه في سجنٍ، وفي أضيق السّجون لأنّ مَنْ فَقَدَ مراقبةَ اللهِ ومحبة الله الأُنس به فهو في سجنٍ.

(وَقَدْ رَوَىٰ التّرْمِذِيّ فِي جَامِعِهِ عَنْ النّبِيّ ﷺ أَنّهُ قَالَ إذَا دَخَلَ النّورُ الْقَلْبَ انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ. قَالُوا: وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللّهِ؟ قَالَ الْإِنَابَةُ إلَىٰ دَارِ الْخُلُودِ وَالتّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ

---

(1) أخرجه الترمذي (2398) وابن ماجة (4023) وحسنة الألباني كما في الصحيحة (143)

وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ فَيُصِيبُ الْعَبْدَ مِنْ انْشِرَاحِ صَدْرِهِ بِحَسْبِ نَصِيبِهِ مِنْ هَذَا النّورِ وَكَذَلِكَ النّورُ الْحِسّيّ وَالظّلْمَةُ الْحِسّيّةُ هَذِهِ تَشْرَحُ الصّدْرَ وَهَذِهِ تُضَيّقُهُ. وَمِنْهَا: الْعِلْمُ فَإِنّهُ يَشْرَحُ الصّدْرَ وَيُوَسّعُهُ حَتّىٰ يَكُونَ أَوْسَعَ مِنْ الدّنْيَا وَالْجَهْلُ يُورِثُهُ الضّيقَ وَالْحَصْرَ وَالْحَبْسُ فَكُلّمَا اتّسَعَ عِلْمُ الْعَبْدِ انْشَرَحَ صَدْرُهُ وَاتّسَعَ وَلَيْسَ هَذَا لِكُلّ عِلْمٍ بَلْ لِلْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ الرّسُولِ ﷺ وَهُوَ الْعِلْمُ النّافِعُ فَأَهْلُهُ أَشْرَحُ النّاسِ صَدْرًا وَأَوْسَعُهُمْ قُلُوبًا وَأَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا وَأَطْيَبُهُمْ عَيْشًا).

(وَقَدْ رَوَىٰ التّرْمِذِيّ عَنْ النّبِيّ ﷺ أَنّهُ قَالَ إذَا دَخَلَ النّورُ الْقَلْبَ) قَلبَ المؤمنِ (انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ. قَالُوا: وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللّهِ؟ قَالَ الْإِنَابَةُ إلَىٰ دَارِ الْخُلُودِ) الرّجوعُ للعملِ لدار الخلود، للجنّة (وَالتّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ) وعدم الاهتمام بدار الغرور والابتعاد عمّا يسبّب الشقاء في دار الغرور؛ لا تغرّه دنياه ولا يغرُّه بالله الغَرورُ –الشّيطان- يتجافىٰ عن هذه المعاني فيتّجه إلىٰ الله، ليْس للعبد باختياره وقوّته وتدبيره وسياسته أن يفعل ذلك، ولكن يُرزق الالتجاء إلىٰ اللهِ ليَرزقَه اللهُ العملَ والحرصَ للعمل لدار الخلود، وليرزقه اللهُ الإعراض عن أسباب الغرورِ في هذه الدّنيا، الأمر كلّه بِيَدِ الله كما قال عمر ﵁: «الْأَمْرُ لَيْسَ مِنْ هَاهُنَا الْأَمْرُ مِنْ هُنَا»[2]. هكذا يقول عمر ﵁، الأمر من عند الله. ومن علامة التّوفيقِ أن يُرزق العبدُ الالتجاء إلىٰ الله في كلّ لحظةٍ وأن يتبرأ من حوله وقوّته إلىٰ حول الله وقوّة الله ومن اختياره وشطارته إلىٰ اختيار الله، فيطلب من الله الاختيار؛ أن يختار له أسبابَ السّعادةِ.

(وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ) الاستعداد للموْت بأن يُقوّيَ إيمانَه ويعمل صالحًا لأنّ

---

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (33844) قال: حدثنا وكيع، عن إسماعيل، عن قيس، قال: لما قدم عمر الشام استقبله الناس وهو علىٰ البعير فقالوا: يا أمير المؤمنين لو ركبت بِرْذَوْنا يلقاك عظماء الناس ووجوههم ، فقال عمر: «لا أراكم هاهنا ، إنما الأمر من هنا» وأشار بيده إلىٰ السماء. اهـ

العمل الصّالح يزيدُ في الإيمان ويقوّي الإيمان، ويبتعد عن المعاصي، المعاصي تُضعف الإيمان، وينقص الإيمان بالمعاصي، ويذهب نورُ الإيمان كلّه أو بعضه ببعض المعاصي كالكبائر والموبقات. (فَيُصِيبُ الْعَبْدَ مِنْ انْشِرَاحِ صَدْرِهِ بِحَسْبِ نَصِيبِهِ مِنْ هَذَا النّورِ) علىٰ حَسَبِ ما يُرزق من نور الإيمان، يتفاوت العباد في انشراح الصدور وفي ضيق الصدور (وَكَذَلِكَ النّورُ الْحِسّيّ وَالظّلْمَةُ الْحِسّيّةُ هَذِهِ تَشْرَحُ الصّدْرَ وَهَذِهِ تُضَيّقُهُ) والتّوفيق بيد الله.

(وَمِنْهَا) من أسباب انشراح الصّدر (الْعِلْمُ) فإنّ العلْم (يَشْرَحُ الصّدْرَ وَيُوَسّعُهُ حَتّىٰ يَكُونَ أَوْسَعَ مِنْ الدّنْيَا وَالْجَهْلُ يُورِثُهُ الضّيقَ وَالْحَصْرَ وَالْحَبْسَ فَكُلّمَا اتّسَعَ عِلْمُ الْعَبْدِ انْشَرَحَ صَدْرُهُ وَاتّسَعَ وَلَيْسَ هَذَا لِكُلّ عِلْمٍ) العلْم له معانٍ، العلم أوسع مفهومًا، ولكن ما هو العلم الذي يُورث انشراح الصّدر ويُقرّب العبد من ربّه ﷻ؟ (الْعِلْمُ الْمَوْرُوثِ عَنْ الرّسُولِ ﷺ)، عندما نتحدّث عن العلمِ بمثل هذا المقام لا نتحدّث عن العلوم المعلومة لدىٰ كثيرٍ من النّاس؛ علوم الدّنيا يستوي فيها المسلم والكافر ولكنّ العلم الذي يخصّ العبد المؤمن ويشرح صدْره ويقرّبه من ربّه؛ العلمُ الموروثُ عن هذا النبيّ الكريم محمّد ﷺ، علمٌ يعرف به ربّه، ويعرف به دينه، ويعرف به نبيّه، ويعرف به الفرْق بين دار الغرور ودار الخلود (وَهُوَ الْعِلْمُ النّافِعُ فَأَهْلُهُ أَشْرَحُ النّاسِ صَدْرًا) مَنْ رزقهم الله العلم؛ أهل هذا العلم أشرح الناس صدرًا وأحبّهم للإيمان وأحبّهم لله ﷻ (وَأَوْسَعُهُمْ قُلُوبًا وَأَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا وَأَطْيَبُهُمْ عَيْشًا)، ولو كان أحدهم أفقر أهلِ الأرضِ تَجده في انشراحٍ وطيبِ حياةٍ؛ تطيب له الحياةُ، الفقر والمرض والمصائب والإعراض وتسلّط الأعداء كلّ ذلك لا يكدّر عيْشه، طالما عَلِمَ أو وثّق صلته بربّه ويعيش مع ربّه فهو في أطيب عيشٍ، هذه الأعراض البشريّة التي لا يسلم منها بشرٌ، لا تضيّق حياته، وقد كان رسول الهدىٰ محمدٌ ﷺ اختار الفقرَ علىٰ الغنىٰ وقد يخرج من بيته لا تُوقد في بيته أيامًا نارٌ، قد يخرج من بيته محتاجًا إلىٰ لُقمة عيشٍ، ويخرج أبو بكر، ويخرج عُمَر ويجتمعون في بستان أحد الصّحابة ويتناولون نوعًا من الرّطب، هذا محمدٌ

رسول الله ﷺ و مع ذلك يعيش مرتاح البالِ يقف لربّه طول الليل حتّىٰ تتورّم قدماه ويُقال له: قد غَفَر الله لك ما تقدّم من ذنبك فلماذا يا رسول الله؟ ﷺ فيكون جوابه: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»(3)، عاش هنا في تلك الحجرة الضّيقة ليس فيها ما في بيْت أفقرنا اليوم، لا تُوجد هناك غرفةُ نومٍ ومجلسٌ خاصٌ ومطبخٌ خاصٌ وكذا وكذا، حجرةٌ واحدةٌ يُصلّي فيها ليْلًا وأهله معترضةٌ بيْن يديه وهو يُصلّي فإذا أراد أنْ يسجدَ غمز رجلها لترفع رجلها ويتمكن من السجود، البيت فيه ضيق ومُزرٍ، مثل هذه الحياة لم تؤثّر في سيْره إلىٰ الله وفي دعوته إلىٰ الله جادًّا في السّير إلىٰ الله إلىٰ أن التقىٰ بربّه ﷻ وهكذا الذي تأسوا به من أصحابه ومن عباد الله الصّالحين لا تُكدِّر عليهم مشاكلُ الدُنْيا حياتَهم، يعيشون في أطيب عيشٍ وفي سيرهم إلىٰ الله.

(وَمِنْهَا: الْإِنَابَةُ إِلَىٰ اللّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَمَحَبَّتُهُ بِكُلّ الْقَلْبِ وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ وَالتّنَعّمُ بِعِبَادَتِهِ فَلَا شَيْءَ أَشْرَحُ لِصَدْرِ الْعَبْدِ مِنْ ذَلِكَ. حَتّىٰ إنّهُ لَيَقُولُ أَحْيَانًا: إنْ كُنْتُ فِي الْجَنّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ فَإِنّي إذًا فِي عَيْشٍ طَيّبٍ وَلِلْمَحَبّةِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي انْشِرَاحِ الصّدْرِ وَطِيبِ النّفْسِ وَنَعِيمُ الْقَلْبِ لَا يَعْرِفُهُ إلّا مَنْ لَهُ حِسّ بِهِ وَكُلّمَا كَانَتْ الْمَحَبّةُ أَقْوَىٰ وَأَشَدّ كَانَ الصّدْرُ أَفْسَحَ وَأَشْرَحَ وَلَا يَضِيقُ إلّا عِنْدَ رُؤْيَةِ الْبَطّالِينَ الْفَارِغِينَ مِنْ هَذَا الشّأْنِ فَرُؤْيَتُهُمْ قَذَىٰ عَيْنِهِ وَمُخَالَطَتُهُمْ حُمّىٰ رُوحِهِ. وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ضِيقِ الصّدْرِ الْإِعْرَاضُ عَنْ اللّهِ تَعَالَىٰ وَتَعَلّقُ الْقَلْبِ بِغَيْرِهِ وَالْغَفْلَةُ عَنْ ذِكْرِهِ وَمَحَبّةُ سِوَاهُ فَإِنّ مَنْ أَحَبّ شَيْئًا غَيْرَ اللّهِ عُذّبَ بِهِ وَسُجِنَ قَلْبُهُ فِي مَحَبّةِ ذَلِكَ الْغَيْرِ فَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْقَىٰ مِنْهُ وَلَا أَكْسَفَ بَالًا وَلَا أَنْكَدُ عَيْشًا وَلَا أَتْعَبُ قَلْبًا فَهُمَا مَحَبّتَانِ مَحَبّةٌ هِيَ جَنّةُ الدّنْيَا وَسُرُورُ النّفْسِ وَلَذّةُ الْقَلْبِ وَنَعِيمُ الرّوحِ وَغِذَاؤُهَا وَدَوَاؤُهَا بَلْ حَيَاتُهَا وَقُرّةُ عَيْنِهَا وَهِيَ مَحَبّةُ اللّهِ وَحْدَهُ بِكُلّ الْقَلْبِ وَانْجِذَابُ قُوَىٰ الْمَيْلِ وَالْإِرَادَةُ وَالْمَحَبّةُ كُلّهَا إلَيْهِ).

---

(3) أخرجه البخاري (1130) ومسلم (7226)

هنا في هذا العنوان يتحدّث عن محبّة الله تعالىٰ مَنْ ذاق حلاوةَ محبّة الله، ألَا وهو العلّامة ابن القيّم فلنسمع له:

(وَمِنْهَا:) من أسباب انشراح الصّدر (الْإِنَابَةُ إِلَىٰ اللّهِ ﷻ وَمَحَبَّتُهُ بِكُلّ الْقَلْبِ وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ وَالتّنَعّمُ بِعِبَادَتِهِ) يقول العلّامة ابن القيّم: (فَلَا شَيْءَ أَشْرَحُ لِصَدْرِ الْعَبْدِ مِنْ ذَلِكَ. حَتّىٰ إِنّهُ لَيَقُولُ أَحْيَانًا: إِنْ كُنْتُ فِي الْجَنّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ فَإِنّي إذًا فِي عَيْشٍ طَيّبٍ) يُدرِك انشراح القلْب وانشراح الصدْر وتعلّق قلْبه بربّه ﷻ، يرىٰ نفْسه كأنّه في الجنّة ويقول: إن رُزقت في الجنّة في مثل هذه الحالة أنا في عيْشٍ طيّبٍ. ويقول: (وَلِلْمَحَبّةِ) محبّة اللهِ تعالىٰ (تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي انْشِرَاحِ الصّدْرِ وَطِيبِ النّفسِ وَنَعِيمُ الْقَلْبِ لَا يَعْرِفُهُ إلّا مَنْ لَهُ حِسٌّ) خاصٌّ وذوقٌ خاصٌّ لهذه المحبّة (وَكُلّمَا كَانَتْ الْمَحَبّةُ أَقْوىٰ وَأَشَدّ كَانَ الصّدْرُ أَفْسَحَ وَأَشْرَحَ وَلَا يَضِيقُ إلّا عِنْدَ رُؤْيَةِ الْبَطّالِينَ الْفَارِغِينَ مِنْ هَذَا الشّأْنِ)، المرادُ بالبطّالين الفارغين الذين فَقَدوا محبّة الله وفَقَدوا انشراح الصّدر بالإسلام ويعيشون عيشة الحيوان، فَرُؤْيَة هؤلاء قَذَىٰ عَيْنِ المحبّ (وَمُخَالَطَتُهُمْ حُمّىٰ رُوحِهِ) وإنمّا يُحِسُّ بالتّعب والنّكد عندما يرىٰ المُعرضين عن الله البطّالين الذين لا يعملون في سبيل السّيْر إلىٰ الله تعالىٰ ويتأثّر من رؤيتهم.

(وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ضِيقِ الصّدْرِ الْإِعْرَاضُ عَنْ اللّهِ تَعَالَىٰ وَتَعَلّقُ الْقَلْبِ بِغَيْرِهِ وَالْغَفْلَةُ عَنْ ذِكْرِ) الله، مَنْ أُصيبَ بالغفلة عنْ ذِكر الله تعالىٰ؛ الذِكر القلبيّ قَبْل الذِكر اللّساني وذِكر اللّسان أجْوف، الذي ليس معه ذكْر القلب لا يجدي ولا يقرّب إلىٰ الله، ولكنّ ذِكْر القلْب أوْ الجمْع بيْنهما؛ ذِكْر اللّسان مع ذكر القلب، يُورث العبدَ محبّة الله والالتجاء إليه ويُؤثِره؛ يؤْثر محبّة الله علىٰ محبّة غيره، ومن فَقَدَ ذلك وعلّق قلبَه بغيره عُذّب؛ (فَإِنّ مَنْ أَحَبّ شَيْئًا غَيْرَ اللّهِ عُذّبَ بِهِ)، من أُصيبَ بمحبّة غيرِ الله كائنًا من كان، دنياه، داره، سيارته، شيخه، زميله أيًّا كان، من أحبّ شيئًا غير الله محبّةً تحُول بيْنه وبيْن محبّة الله [عُذِّب به]، أمّا إنْ كانت محبّةَ عبادةٍ مع

التّذلّل والتّعظيم ذلك الشرْك الأكبر والكفْر البواح، من أحبّ غير الله محبّةً كمحبّة الموحّدين لله ربّ العالمين أي محبّة عبادةٍ فيها التّذلّل وفيها التّعظيم وفيها الخشيةُ مِثْل هذه المحبّة صَرْفُها لغير الله تعالىٰ يُعتبر كفرًا بالله، ويعتبر أنّ ذلك الذي أحبّه وشيْخه الذي علّق به قلبه وأحبّه هذه المحبّة العظيمة جعله شريكًا لله، فالله ﷻ يتركه ويكِله إلىٰ شيْخه فماذا يصنع له شيخه؟ وإنْ كانت المحبّة من النّوع الآخر كمن أحبّ غير الله وتلك المحبّة أثّرت في سبيلِ العملِ الإسلامي؛ حالت بيْنه وبيْن الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكر، فآثر الحياة الدّنيا وتملّق لغير الله ونَسِيَ ربّ العالمين الذي معه وإن كانت هذه المحبّة لا تصل إلىٰ درجة الكفر والشرك ولكنّها محبّةٌ خطيرةٌ، سوْف يُسأل لماذا سكت عن المنْكر؟ ولماذا سكت عن الأمر بالمعروف؟ ولماذا سكت عن النّصْح؟ ويكون جوابه: خشيتُ منهم يا ربّ. فيكون الجواب: أنا أولىٰ بالخشية والخوف؟

هذا النوع من المحبّة أيضًا من أخطر أنواع المحبّة لغير الله تعالىٰ.

و هذه المحبّة سجنٌ، قلبه مسجونٌ عن محبّة الله، (فَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْقَىٰ مِنْهُ وَلَا أَكْسَفَ بَالًا) لأنّه دائمًا قلقٌ؛ الإنسان دائمًا يتقلّب لعلّ الذي أحبّه وعلّق به قلبه ورجاءه وطمع فيه ربّما ينْقلب عليه، لذلك [هو] دائمًا مشغول البال (وَلَا أَنْكَدُ عَيْشًا وَلَا أَتْعَبُ قَلْبًا فَهُمَا مَحَبَّتَانِ مَحَبَّةٌ هِيَ جَنَّةُ الدّنْيَا وَسُرُورُ النّفْسِ وَلَذَّةُ الْقَلْبِ) يذكّرنا هذا الموقف موقفَ شيخ الإسلام ابن تيميّة أيّام الفتنة عندما كان يُرَحّل بيْن دمشق وبين القاهرة والإسكندرية ويعذّب، يُنفىٰ من هنا ثم من هناك، فيقول: ماذا يصنع أعدائي وخصومي [بي]؟ جنّتي في قلبي حيثما رُحْت، نفيي سياحةٌ، وسجْني خلوةٌ، وقتلي شهادةٌ، وهل يصنعون أكثر من هذا؟ وهل هناك شرٌّ رابع؟ لا، إمّا القتل أو النّفي أو السجْن، في كلّ ذلك يرىٰ لنفسه لذّةً وطمأنينةً وأنّ جنّته معه، هذا الذي يتحدّث معنا الآن تلميذه -رحمهما الله-، (مَحَبَّةٌ هِيَ جَنَّةُ الدّنْيَا وَسُرُورُ النّفْسِ وَلَذَّةُ الْقَلْبِ وَنَعِيمُ الرّوحِ وَغِذَاؤُهَا وَدَوَاؤُهَا بَلْ حَيَاتُهَا وَقُرَّةُ عَيْنِهَا وَهِيَ مَحَبَّةُ اللّهِ وَحْدَهُ بِكُلّ

الْقَلْبِ) حتّىٰ لا يدخل في قلبك أحدٌ، لذلك يقول بعض أهل العلم: القَلْبُ بَيْتُ الرَّبِّ لَا يَسْكُنُ فِيهِ غَيْرُ اللهِ، وإنْ أسكنت فيه غير الله تَرَكَك وترك قلْبك وخرج من قلبك وهلكت. (وَانْجِذَابُ قُوَىٰ الْمَيْلِ وَالْإِرَادَةُ وَالْمَحَبَّةُ كُلّهَا) إلىٰ الله ﷻ لذلك تهون عليه الدّنيا بكلّ ما فيها من زخارفها ولذّاتها ونكدها ومصائبها.

(وَمَحَبَّةٌ هِيَ عَذَابُ الرّوحِ وَغَمّ النّفْسِ وَسِجْنُ الْقَلْبِ وَضِيقُ الصّدْرِ وَهِيَ سَبَبُ الْأَلَمِ وَالنّكَدِ وَالْعَنَاءِ وَهِيَ مَحَبّةُ مَا سِوَاهُ سُبْحَانَهُ. وَمِنْ أَسْبَابِ شَرْحِ الصّدْرِ دَوَامُ ذِكْرِهِ عَلَىٰ كُلّ حَالٍ وَفِي كُلّ مَوْطِنٍ فَلِلذّكْرِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي انْشِرَاحِ الصّدْرِ وَنَعِيمِ الْقَلْبِ وَلِلْغَفْلَةِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي ضِيقِهِ وَحَبْسِهِ وَعَذَابِهِ).

النوع الثاني: (وَمَحَبَّةٌ هِيَ عَذَابُ الرّوحِ وَغَمّ النّفْسِ وَسِجْنُ الْقَلْبِ وَضِيقُ الصّدْرِ وَهِيَ مَحَبّةُ مَا سِوَاهُ سُبْحَانَهُ) [فمن أحبّ شيئًا] محبّةً كمحبّة الله أو محبّة تحول بيْنه وبيْن محبّة الله وبيْن السيْر إلىٰ الله وبيْن العمل بمرضاة الله، هذه المحبّة سجنٌ وعذابٌ.

(وَمِنْ أَسْبَابِ شَرْحِ الصّدْرِ دَوَامُ ذِكْرِهِ ﷻ عَلَىٰ كُلّ حَالٍ) وإنْ لم تسْتطع علىٰ مداومة ذكر اللّسان مع القلب عليك أن تداوم علىٰ ذكر القلب وهو سهلٌ ميسورٌ لمن يسّره الله عليه، أن يكون اللهُ علىٰ بالك دائمًا وأبدًا؛ تذكّر أنّه يراك ويسمعك ويرىٰ مكانَك ويرىٰ ممْشاك، لا يخفىٰ عليه شيءٌ من أمرك، إذا كنت دائمًا علىٰ ذكرك بهذا المعنىٰ فأنت علىٰ خيرٍ ويسبّب هذا انشراح الصّدر. (وَفِي كُلّ مَوْطِنٍ) أينما كنت (فَلِلذّكْرِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي انْشِرَاحِ الصّدْرِ) هكذا يقول من جرّب (وَنَعِيمِ الْقَلْبِ وَلِلْغَفْلَةِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي ضِيقِهِ وَحَبْسِهِ وَعَذَابِهِ) فنسأل الله لنا ولكم السّلامة.

(وَمِنْهَا: الْإِحْسَانُ إِلَىٰ الْخَلْقِ وَنَفْعُهُمْ بِمَا يُمْكِنُهُ مِنْ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالنَّفْعِ بِالْبَدَنِ وَأَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ فَإِنَّ الْكَرِيمَ الْمُحْسِنَ أَشْرَحُ النَّاسِ صَدْرًا وَأَطْيَبُهُمْ نَفْسًا وَأَنْعَمُهُمْ قَلْبًا وَالْبَخِيلُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِحْسَانٌ أَضْيَقُ النَّاسِ صَدْرًا وَأَنْكَدُهُمْ عَيْشًا وَأَعْظَمُهُمْ همًّا وَغمًّا. وَقَدْ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الصَّحِيحِ مَثَلًا لِلْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا هَمَّ الْمُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ حَتَّىٰ يَجُرَّ ثِيَابَهُ وَيُعْفِيَ أَثَرَهُ وَكُلَّمَا هَمَّ الْبَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا وَلَمْ تَتَّسِعْ عَلَيْهِ فَهَذَا مَثَلُ انْشِرَاحِ صَدْرِ الْمُؤْمِنِ الْمُتَصَدِّقِ وَانْفِسَاحِ قَلْبِهِ وَمَثَلُ ضِيقِ صَدْرِ الْبَخِيلِ وَانْحِصَارِ قَلْبِهِ وَمِنْهَا الشَّجَاعَةُ فَإِنَّ الشَّجَاعَ مُنْشَرِحُ الصَّدْرِ وَاسِعُ الْبِطَانِ مُتَّسِعُ الْقَلْبِ وَالْجَبَانُ أَضْيَقُ النَّاسِ صَدْرًا وَأَحْصَرُهُمْ قَلْبًا لَا فَرْحَةٌ لَهُ وَلَا سُرُورٌ وَلَا لَذَّةٌ لَهُ وَلَا نَعِيمٌ إِلَّا مِنْ جِنْسِ مَا لِلْحَيَوَانِ الْبَهِيمِيِّ وَأَمَّا سُرُورُ الرُّوحِ وَلَذَّتُهَا وَنَعِيمُهَا وَابْتِهَاجُهَا فَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ كُلِّ جَبَانٍ كَمَا هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَىٰ كُلِّ بَخِيلٍ وَعَلَىٰ كُلِّ مُعْرِضٍ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ غَافِلٍ عَنْ ذِكْرِهِ جَاهِلٍ بِهِ وَبِأَسْمَائِهِ تَعَالَىٰ وَصِفَاتِهِ وَدِينِهِ مُتَعَلِّقِ الْقَلْبِ بِغَيْرِهِ.

وَإِنَّ هَذَا النَّعِيمَ وَالسُّرُورَ يَصِيرُ فِي الْقَبْرِ رِيَاضًا وَجَنَّةً وَذَلِكَ الضِّيقُ وَالْحَصْرُ يَنْقَلِبُ فِي الْقَبْرِ عَذَابًا وَسِجْنًا. فَحَالُ الْعَبْدِ فِي الْقَبْرِ كَحَالِ الْقَلْبِ فِي الصَّدْرِ نَعِيمًا وَعَذَابًا، وَسِجْنًا وَانْطِلَاقًا، وَلَا عِبْرَةَ بِانْشِرَاحِ صَدْرِ هَذَا لِعَارِضٍ، وَلَا بِضِيقِ صَدْرِ هَذَا لِعَارِضٍ، فَإِنَّ الْعَوَارِضَ تَزُولُ بِزَوَالِ أَسْبَابِهَا، وَإِنَّمَا الْمُعَوَّلُ عَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي قَامَتْ بِالْقَلْبِ تُوجِبُ انْشِرَاحَهُ وَحَبْسَهُ، فَهِيَ الْمِيزَانُ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

قال العلّامة ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يعدّد أسبابَ انشراح الصّدر: (وَمِنْهَا: الْإِحْسَانُ إِلَىٰ الْخَلْقِ وَنَفْعُهُمْ بِمَا يُمْكِنُهُ مِنْ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالنَّفْعِ بِالْبَدَنِ وَأَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ) فإنّ «خَيْرَ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ

لِلنَّاسِ»[4]، وإذا سعىٰ العبدُ في نفعِ عبادِ الله بما مكّنه الله من المال والجاه للوساطة والشفاعة والنّفع بالبدن وأنواع الإحسان، هذه المعاني الكبيرة من معاني الإحسان ممّا يشرح صدرَ العبْد. (فَإِنّ الْكَرِيمَ الْمُحْسِنَ أَشْرَحُ النّاسِ صَدْرًا وَأَطْيَبُهُمْ نَفْسًا وَأَنْعَمُهُمْ قَلْبًا) من جَبَلَهُ الله علىٰ الإحسان إلىٰ عباده والبذلِ والعطاءِ يكون دائمًا منشرحَ الصّدر وطيّب النّفس لا حسد فيه ولا بُغض، (وَالْبَخِيلُ الّذِي لَيْسَ فِيهِ إِحْسَانٌ) أنانيٌّ لا يعرف إلّا نفسه (أَضْيَقُ النّاسِ صَدْرًا وَأَنْكَدُهُمْ عَيْشًا) يحرصُ علىٰ تحصيلِ المال وعلىٰ تحصيلِ الجاهِ، وتحصيلِ المناصبِ، والمحافظة علىٰ ذلك، و إكثار ماله ودائمًا في نكدٍ من الحياة، (وَأَعْظَمُهُمْ همّا وَغمّا) همّه وغمّه في دنياه لا يهمّه شيءٌ من أمور الآخرة. (وَقَدْ ضَرَبَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فِي الصّحِيحِ مَثَلًا لِلْبَخِيلِ وَ – ومثلًا للكريم – الْمُتَصَدّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنّتَانِ –درعان– مِنْ حَدِيدٍ) بالنسبة للمتصدّق (كُلّمَا هَمّ بِالصّدَقَةِ) اتّسعَ هذا الدرعُ حتّىٰ ينزل –لأنّ الدّرع أوّل ما يدخل فيه الإنسان برأسه فينزل– إلىٰ ثدييه إلىٰ أن ينزل فيجرّ علىٰ الأرض فيُعفي أثره، هذا مثل الكريم المتصدّق، أمّا الآخر فكلمّا يهمّ بالإنفاق و(الصّدَقَةِ لَزِمَتْ كُلّ حَلْقَةٍ –من الدّرع– مَكَانَهَا وَلَمْ تَتّسِعْ) فتتضيّق عليه، المراد أن الجواد إذا همّ بالصّدقة والإحسان انشرح له صدره وطابت نفسه وتوسّعت في الإنفاق نفسه ورغب في العطاء والبذلِ ولا يجدُ راحةً ولذةً لماله إلّا حين يُنفقه، لذلك قيل: نِعمَ المَال الصالِحُ للرّجل الصّالِح، وأمّا البخيل إذا حدّث نفسه بالعطاء والصّدقة والإنفاق ضاقت نفسه وضاق صدرهُ وبخلت يدهُ، وأخذ في الهمّ والغمّ ماذا يفعل؟ وربّما يضطرّ إلىٰ الإخراج ولكن يُخرج وهو في ضيقٍ وهمٍّ وغمٍّ.

يقول الحافظ ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَهَذَا مَثَلُ انْشِرَاحِ صَدْرِ الْمُؤْمِنِ الْمُتَصَدّقِ وَانْفِسَاحِ قَلْبِهِ وَمَثَلُ (آخرٌ) لِضِيقِ صَدْرِ الْبَخِيلِ وَانْحِصَارِ قَلْبِهِ).

ثم يقول: من أسبابِ انشراحِ الصّدرِ أنْ يُرزق الإنسانُ (الشّجَاعَةَ فَإِنّ الشّجَاعَ مُنْشَرِحُ

(4) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (129) والطبراني في الأوسط (5787) وحسّنه الألباني في الصحيحة (426)

الصّدْرِ وَاسِعُ الْبِطَانِ)، البِطَان: الحِزَام من قصبٍ، الذي يكون تحت بطن البعير، وهذا مثلٌ، يقول القائل منهم إذا أراد أنْ يَصِف الأمر بالشدّة: التَقَت حلقتَا البطان، إذا التقت حلقتا البطان معنىٰ ذلك اشتدّ الأمر. وإنّ الشجاع بطانُه واسعٌ (مُتّسِعُ الْقَلْبِ) وأمّا (الْجَبَانُ فأَضْيَقُ النّاسِ صَدْرًا وَأَحْصَرُهُمْ قَلْبًا لَا فَرْحَةٌ لَهُ وَلَا سُرُورٌ وَلَا لَذّة لَهُ وَلَا نَعِيمٌ إلّا مِنْ جِنْسِ مَا لِلْحَيَوَانِ الْبَهِيمِيّ) البُخل والجُبنُ صفتان متلازمتان كما أنّ الكَرَم والشَجاعة صفتان متلازمتان، إذا رأيت إنسانًا يبذلُ ماله بسخاءٍ فاعلم بأنّه شُجاعٌ سوْف يبذل نفسه وروحَه، ومن يبْخل ببَذْلِ ماله سوْف لا يشقىٰ بِبَذل روحه ونفسه، هما صفتان متلازمتان؛ الجبانُ والبخيلُ لا يفرحان إلّا كما يفرحُ الحيوانُ البهيمي، أيْ بشهوة بطنِه وفرجِه، هنا يفرح وأمّا فَرَح الرّوح ولذّة القلبِ ولذّة روحه لا فرح له ولا لذّة ولا نعيم، [فقَدَ] فَرَحَ الروح ولذّتها ونعيمها وابتهاجها، هذه المعاني محرّمةٌ (عَلَىٰ كُلّ جَبَانٍ كَمَا هُي مُحَرّمَةٌ عَلَىٰ كُلّ بَخِيلٍ) لأنّ البخيلَ كما أنّه بعيدٌ من الناس بعيدٌ عن الله، بخلاف الكريم. (وَعَلَىٰ كُلّ مُعْرِضٍ) كذلك، سرورُ الروح ولذّةُ الروح ونعيمُ الروح محرّمٌ علىٰ كلّ معرضٍ عن الله لا يبتغي فيما عند الله، لا يرجو ثواب اللهِ، يريد أن يعيش فقط في هذه الحياة، (غَافِلٍ عَنْ ذِكْرِ) الله، لا يذكر الله لا بقلبه ولا بلسانه، وهذه المعاني محرّمةٌ علىٰ جاهلٍ بربّه لا يرفع رأسه ليتعلّم ما جاء به رسول الله ﷺ ولا يتوسّل إلىٰ الله بأسمائه وصفاته بل لا يعلم شيئًا من أسماء الله تعالىٰ وصفاته، جاهلٌ معرضٌ لا يعلم بأنّ الله هو الحيُّ القيّومُ وأنّه الرّحمنُ الرّحيمُ ليتوسل بهذه الأسماء إلىٰ الله، يجهل هذه المعاني كلّها، ويجهل دينه، ومبادئ دينه [...] ويُقال له منْ ربّك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ وربّما قيل له: ماذا تقول في الرجل الذي بُعث فيكم؟ الجاهلُ لدينه، الجاهل لهذه الأسئلةِ وغيرُ مستعدٍّ للإجابة عليها ليس له سرورٌ ولذةٌ في دينه.

و يقول الشيخ رحمه الله إنَّ منْ كان (مُتعَلّق الْقَلْبِ بِغَيْرِهِ) كذلك يُحرم هذا الانشراح وهذه اللذّة وهذا السّرور وهذا النّعيم. من كان دائمًا قلبُه متعلقٌ بغير الله إنْ حصل له شيءٌ من النّكد

والمصائب والأمراضِ لا يقول يا الله وإنّما يقول يا فلان وبجاهِ فلان وبركةِ فلان وقلبه معلّقٌ بغير الله، وهذا يُحرم انشراح الصّدرِ ونعيمَ الرّوح ويقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (وَإِنَّ هَذَا النَّعِيمَ وَالسُّرُورَ) الذي يتمتّعُ به المؤمنُ الموحّدُ (يَصِيرُ فِي الْقَبْرِ رِيَاضًا وَجَنَّةً) يتحوّل سروره وفرحه وانشراح صدره إذا دخل القبْر إلىٰ رياضٍ وجنّةٍ لأنّ القبر إمّا روضةٌ من رياضُ الجنّة أو حفرةٌ من حُفَر النيران، (وَذَلِكَ الضّيقُ – الذي يحسّه غير المؤمنُ - وَالْحَصْرُ) والحبس ينقلب في (الْقَبْرِ عَذَابًا وَسِجْنًا). إذن (فَحَالُ الْعَبْدِ فِي الْقَبْرِ كَحَالِ الْقَلْبِ فِي الصّدْرِ) وإذا أراد الإنسان أن يعرفَ ما الذي يحصلُ له في قبره فلينظر حالَ قلبِه في صدره، كيف قلبه في صدرِه؟ إذا كان منشرحًا مسرورًا فرحًا بنعمةِ الله وبالقربِ من الله فليعلم أنّ حاله في القبر يُشبه هذا (نَعِيمًا وَعَذَابًا)، وإذا كان ضيّقَ الصدرِ محبوسًا في حسرةٍ وحبْسٍ في هذه الدنيا -قلْبه في صدره- يكون في القبْر في عذابٍ وسجْنٍ ليس له اختلاف.

ويقول الشيخ : هذا بالنسبة لمن يداوم، لمن يلازم هذه الحالة نفيًا وإثباتًا أمّا ما قد يحصلُ للإنسانِ من الانشراح أحيانًا ومن الضيق أحيانًا لظروفٍ طارئةٍ لا عبرة بذلك وإنّما العبرةُ بمُلازمة ذلك والمداومةُ والله المستعان.

(وَمِنْهَا بَلْ مِنْ أَعْظَمِهَا: إِخْرَاجُ دَغَلِ الْقَلبِ مِنْ الصّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ الّتِي يَكُونَ لَهُ مَادّتَانِ تَعْتَوِرَانِ عَلَىٰ قَلْبِهِ وَهُوَ لِلْمَادّةِ الْغَالِبَةِ عَلَيْهِ مِنْهُمَا).

(وَمِنْهَا بَلْ مِنْ أَعْظَمِ) ما يشرحُ صدرَ المؤمنِ: (إِخْرَاجُ دَغَلِ القَلْبِ) الدّغلُ: من أمراضِ

القلب؛ من الحسد والحقد وسوء الظّنّ والحرص و طول الأمل، منْ في قلبه الحسدُ والحقدُ علىٰ عباد الله ومن في قلبه طولُ الأملِ في هذه الحياة والحرصُ علىٰ جمع المال وتنمية المال وحفظ المال، من كان مشغولًا بهذه الأمراض القلبيّة لا يحصل له شيءٌ من انشراح الصّدر.
الحسد: تمنّي زوالَ نعمة الغير سواءً كانت النّعمة حسّيةً؛ إذا رأىٰ من أنعم الله عليه بالمال كَرِهَ وضاق صدره وتمنّىٰ أن تزول هذه النعمة سواءٌ انتقلت إليه أو زالت إلىٰ أيّ جهةٍ ولا يحبّ ولا يستطيع أن يرىٰ نعمةَ الله علىٰ عبادِ الله، هذا الحاسد، سواء كانت نعمة المال-كما قلنا- أو نعمة الجاه، نعمة المناصب، نعمة العلم، نعمة الصّحّة، نعمة قوّة السّمع وقوّة البصر وقوّة البدن، هذه النِعَم كلّها لا يُطيق الحاسدُ أن يراها علىٰ غيره بل يتمنّىٰ أن تزول هذه النِّعم، والحسود دائمًا في ضيقٍ وهو في حربٍ مع اللهِ قبل عباد الله لأنّه معترضٌ علىٰ الله، فلِسان حاله يقول يا ربّ لماذا أعطيت فلانًا كذا وكذا من المال والجاه والعلم والمنصب وغير ذلك؟ يعترض علىٰ الله، من أين له انشراح الصّدر من يعترض علىٰ ربّه ولا يرضىٰ بقسمته، لذلك ينصح رسول الله ﷺ فيقول: علىٰ المرءِ أن ينظرَ إلىٰ من دونه، لأن لا ينْسىٰ ما عليه من النّعم، إذا كنتَ متوسط الحال لا تنظر إلىٰ من فوْقك في كثرة الأموال وكثرةِ الثراء وغير ذلك ولكن انظر إلىٰ من دونك، ما من فقيرٍ إلّا وهناك من هو أفقرُ منه، إذا كنت تتمتّع بالصحّة والعافية هناك المرضىٰ، وإذا كنت قليل ما في اليد هناك الفقير الملصق بالتّراب، عديمٌ لا يملك شيئًا، إذا نظرت إلىٰ من دونك في النعم، مَنْ دونك في الصحّة، شكرت نعمة اللهِ التي أنت عليها وأنت فيها ويزيدك من فضله سبحانه، وإذا نظرت إلىٰ من فوقك نسيت ما أنتَ فيه من النِّعم وصرْت مشغول البالِ وربّما دخل عليك الحسدُ وتمنّيت لو زالت تلك النِّعم لأن لا تراها ووقعت في حربٍ مع الله وهذه مصيبةٌ يصاب بها مرضىٰ القلوب. كذلك إساءة الظّنّ بالنّاس واتّهام النّاس بما فيهم وبما ليس فيهم وانشغالك ليلَ نهار بطولِ الأمل هكذا تريدُ أنْ تعيشَ في هذه الدّنيا ولا تموت وتحرص علىٰ جمع المالِ وتسعىٰ وتفكّر، تفكيرك كلّه في الحرصِ

وطول الأملِ، هذه من الأمراض القلبيّة التي تسبّبُ ضيقَ الصدرِ. والدّغلُ من الصّفات المذمومة التي تُورث ضيق القلب وعذابه وتحول بيْنه وبيْن حصول البُرء والعافيةِ من الأمراض، فإنّ الإنسانَ إذا أتىٰ بالأسباب التي تشرح صدره ولم يُخرج من قلبِه تلك الأوساخَ المذمومةَ التي وصفناها لنْ يحض من انشراح صدره بطائلٍ لا يتحصّل علىٰ شيءٍ مذكورٍ وغايته أن يكون له (مَادّتَانِ تَعْتَورَانِ عَلَىٰ قَلْبِهِ وَهُوَ لِلْمَادّةِ الْغَالِبَةِ عَلَيْهِ مِنْهُمَا) إمّا مادّةُ الصّلاحِ وانشراح الصّدرِ وإمّا مادّةٌ فاسدةٌ كالحسد فهو للغالب منهما.

(وَمِنْهَا: تَرْكُ فُضُولِ النّظَرِ وَالْكَلَامِ وَالِاسْتِمَاعِ وَالْمُخَالَطَةِ وَالْأَكْلِ وَالنّوْمِ فَإِنّ هَذِهِ الْفُضُولَ تَسْتَحِيلُ آلَامًا وَغُمُومًا وَهُمُومًا فِي الْقَلْبِ تَحْصُرُهُ وَتَحْبِسُهُ وَتُضَيّقُهُ وَيَتَعَذّبُ بِهَا بَلْ غَالِبُ عَذَابِ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْهَا فَلَا إلَهَ إلّا اللّهُ مَا أَضْيَقَ صَدْرَ مَنْ ضَرَبَ فِي كُلّ آفَةٍ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ بِسَهْمٍ وَمَا أَنْكَدَ عَيْشَهُ وَمَا أَسْوَأَ حَالِهِ وَمَا أَشَدّ حَصْرِ قَلْبِهِ وَلَا إلَهَ إلّا اللّهُ مَا أَنْعَمَ عَيْشَ مَنْ ضَرَبَ فِي كُلّ خَصْلَةٍ مِنْ تِلْكَ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ بِسَهْمٍ وَكَانَتْ هِمّتُهُ دَائِرَةً عَلَيْهَا حَائِمَةً حَوْلَهَا فَلِهَذَا نَصِيبٌ وَافِرٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [الِانْفِطَارُ 13] وَلِذَلِكَ نَصِيبٌ وَافِرٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّ الْفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الِانْفِطَارُ 14] وَبَيْنَهُمَا مَرَاتِبُ مُتَفَاوِتَةٌ لَا يُحْصِيهَا إلّا اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ).

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: من أسباب انشراح الصّدر (تَرْكُ فُضُولِ النّظَرِ) النّظرة الأولىٰ إذا وقعت علىٰ امرأةٍ أجنبيةٍ، النّظرة الأولىٰ لك لا تُحسبُ عليك وإن أحبّ النظر، هذه النّظرة من فُضول النّظر فهي عليك والإكثار من هذه النّظرة من فُضول النّظر؛ أيْ غير ما أُبيح لك وهو ما

وقع من أوّل مرّةٍ. والإكثار من فضول (الْكَلَامِ) ممّا يُضيّق الصّدرَ ويُسبّب قَسوة القلبِ، كثرةُ الكلامِ إنّما تُفيد في تلاوة كتاب الله، وفي ذكر الله، ومذاكرة العلم النافع، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والوعظ والإرشاد، أمّا فُضول الكلام الذي زاد علىٰ ذلك فيما لا طائلَ تَحْته من قيل وقال ممّا يُسبّب قسوة القلب ويَفقد الإنسانُ انشراح صدره بسبب ذلك. ومن [أسباب ضيق الصدر] (الِاسْتِمَاعِ) إلىٰ المُلْهِيات؛ إلىٰ الأغاني، إلىٰ ما يُلهيك عن ذِكْر الله وعن الصّلاة، يذهب بانشراح الصّدر ويسبّب قسوة القلب وقد يُميت القلبَ إذا استمرّ الإنسان علىٰ ذلك.

ومن ذلك (وَالْمُخَالَطَةُ) الزّائدةُ وهذه من أخطرها، المخالطةُ تسبّب الغِيبة والنميمة وضياع الوقت في قيل وقال، المخالطةُ المطلوبةُ: مخالطةُ الخيارِ في طَلَبِ العلم وفي ذكرِ اللهِ والمذاكرة النافعة، المخالطة التي تذكّرك بالله وتحذوك إلىٰ الله، أمّا مخالطةُ السفهاء الذين لا تستفيد منها إلّا قيل وقال، إلّا الوقوعَ في أعراضِ النّاس، إلّا الغيبة وتضييع الوقت فيما لا طائلَ تحته، هذه من الأمور التي تذهب بانشراح الصّدر وتسبّب قسوةَ القلبِ.

(وَالْأَكْلُ) الزّائد والنّوم الزّائد كذلك؛ لأنّ الأكلَ الزّائدَ والشربَ الزّائدَ يجلبان النّوم -النّوم الزّائد- وهذه مما يُورث الغفلةَ، كثرةُ الأكلِ فوق اللّازم، وكثرةُ الشُّرب، وكثرةُ النَّوم من الأسباب التي تُورِثُ الإنسانَ الغفلةَ عن ذكر الله وقسوة القلب، وممّا يُؤْسف له في الآونة الأخيرة أُعتبر هذا الشّهرُ الشّهرَ الذي يُكثر فيه الإنسان من الأكلِ والشّربِ وجميع الملذّات ثم النّوم، يقضي الإنسانُ طولَ نهاره أو جُلّ نهاره في النّوم وإذا جاء اللّيل تناول من كلّ ما لذّ وطاب ويطلب الإنسان في هذا الشّهر كلّ ما لذّ وطاب، كأنّه يتشفّىٰ بالليل عمّا أحسّه في النّهار، ماذا أحسّ وإنّما هو في نومٍ عميقٍ، المفروض في هذا الشّهر أن يقتصرَ الإنسانُ علىٰ الكفاف من العيْش وعلىٰ تخفيف النوم والتّقليل من الأكل والشرب والاقتصار علىٰ ما يستعين به علىٰ الصّيام والقيام وذِكْرِ الله تعالىٰ، وأمّا الإكثار من ذلك فيذهبُ بلذّة الطّاعة، لا

يحسّ للطّاعة لذّةً ولا يجدُ في نفسه انشراحًا، مشغول البال كيف يجمع وكيف يتناول وكيف يغذّي، هذا كلّ همّه، ومن وصل إلىٰ هذه الدرجة اشترك مع البهائم.

(إِنّ هَذِهِ الْفُضُولَ تَسْتَحِيلُ آلَامًا وَغُمُومًا وَهُمُومًا) تتحوّلُ إلىٰ الآلام وإلىٰ الغموم والهموم (فِي الْقَلْبِ) همّهُ وغمّهُ في هذه الأمور، في بطنِه وفرجِه. ويضيق صدره (وَيَتَعَذّبُ بِهَا بَلْ غَالِبُ عَذَابِ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ) هذه الأمور خصوصًا المخالطة لأنّ المخالطةَ -كما قلنا- تسبّبُ النّميمةَ وقد مرّ رسول الله ﷺ علىٰ قبريْن وأخبر أنّهما يعذّبان وما يعذّبان في كبيرة ومما ذَكَر أنّ أحدهما كان يسعىٰ بالنّميمة بين النّاس والإفساد بين النّاس وما وَصَل إلىٰ هذه الدّرجة إلّا بكثرةِ المخالطةِ، يقول الشّيخ رَحِمَهُ اللهُ: (فَلَا إلَهَ إلّا اللّهُ مَا أَضْيَقَ صَدْرَ مَنْ ضَرَبَ فِي كُلّ آفَةٍ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ بِسَهْمِ) إنّهُ لضيّقُ الصّدْر ولكن لا يحسّ إلّا إذا أفاق (وَمَا أَنْكَدَ عَيْشَهُ وَمَا أَسْوَأَ حَالِهِ وَمَا أَشَدّ حَصْرِ قَلْبِهِ وَلَا إلَهَ إلّا اللّهُ مَا أَنْعَمَ عَيْشِ مَنْ ضَرَبَ فِي كُلّ خَصْلَةٍ مِنْ تِلْكَ الْخِصَالِ) من الإنصافِ والشجاعةِ والإقدامِ والسخاءِ وذِكْرِ الله تعالىٰ، ضَرب ذلك (بِسَهْمِ وَكَانَتْ هِمّتُهُ دَائِرَةً عَلَيْهَا حَائِمَةً حَوْلَهَا فَلِهَذَا نَصِيبٌ وَافِرٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الِانْفِطَارُ 13]) نعيمٌ في الدّنيا ونعيمٌ في الآخرة، السّرورُ بالله وانشراحُ صدره بدين الله والتّلذّذُ بطاعةِ اللهِ، هذا نعيمٌ في الدّنيا قبل نعيمِ الآخرة (﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الِانْفِطَارُ 14]) جحيمٌ في الدّنيا في همٍّ وغمٍّ وضيقٍ وعذابٍ قبل جحيمِ الآخرةِ (وَبَيْنَهُمَا مَرَاتِبُ مُتَفَاوِتَةٌ لَا يُحْصِيهَا إلّا اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ).

(وَالْمَقْصُودُ أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ كَانَ أَكْمَلَ الْخَلْقِ فِي كُلّ صِفَةٍ يَحْصُلُ بِهَا انْشِرَاحُ الصّدْرِ وَاتّسَاعُ الْقَلْبِ وَقُرّةُ الْعَيْنِ وَحَيَاةُ الرّوحِ فَهُوَ أَكْمَلُ الْخَلْقِ فِي هَذَا الشّرْحِ وَالْحَيَاةِ وَقُرّةِ الْعَيْنِ مَعَ مَا خُصّ بِهِ مِنْ الشّرْحِ الْحِسّيّ وَأَكْمَلُ الْخَلْقِ مُتَابَعَةً لَهُ أَكْمَلُهُمْ انْشِرَاحًا وَلَذّةً وَقُرّةَ عَيْنٍ وَعَلَىٰ حَسَبِ مُتَابَعَتِهِ يَنَالُ الْعَبْدُ مِنْ انْشِرَاحِ صَدْرِهِ وَقُرّةِ عَيْنِهِ وَلَذّةِ رُوحِهِ مَا يَنَالُ فَهُوَ ﷺ فِي

ذُرْوَةِ الْكَمَالِ مِنْ شَرْحِ الصَّدْرِ وَرَفْعِ الذِّكْرِ وَوَضْعِ الْوِزْرِ وَلِأَتْبَاعِهِ مِنْ ذَلِكَ بِحَسْبِ نَصِيبِهِمْ مِنْ اتِّبَاعِهِ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ. وَهَكَذَا لِأَتْبَاعِهِ نَصِيبٌ مِنْ حِفْظِ اللَّهِ لَهُمْ وَعِصْمَتِهِ إِيَّاهُمْ وَدِفَاعِهِ عَنْهُمْ وَإِعْزَازِهِ لَهُمْ وَنَصْرِهِ لَهُمْ بِحَسْبِ نَصِيبِهِمْ مِنْ الْمُتَابَعَةِ فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ. فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ. وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.)

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْمَقْصُودُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَكْمَلَ الْخَلْقِ فِي كُلِّ صِفَةٍ يَحْصُلُ بِهَا انْشِرَاحُ الصَّدْرِ) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] هكذا أثنى الله عليه.

(واتِّسَاعُ الْقَلْبِ وَقُرَّةُ الْعَيْنِ وَحَيَاةُ الرّوحِ فَهُوَ) ﷺ (أَكْمَلُ الْخَلْقِ فِي هَذَا الشَّرْحِ وَالْحَيَاةِ وَقُرَّةِ الْعَيْنِ مَعَ مَا خُصّ بِهِ مِنْ الشَّرْحِ الْحِسّيِّ وَأَكْمَلُ الْخَلْقِ مُتَابَعَةً لَهُ أَكْمَلُهُمْ انْشِرَاحًا وَلَذَّةً وَقُرَّةَ عَيْنٍ) كلّما يكون العبد أكمل في اتّباعه ﷺ يكون أكمل انشراحًا للصدر ولذّةً وقرة عينٍ (وَعَلَىٰ حَسَبِ مُتَابَعَتِهِ يَنَالُ الْعَبْدُ مِنْ انْشِرَاحِ صَدْرِهِ وَقُرّةِ عَيْنِهِ وَلَذّةِ رُوحِهِ مَا يَنَالُ فَهُوَ ﷺ فِي ذُرْوَةِ الْكَمَالِ مِنْ شَرْحِ الصّدْرِ وَرَفْعِ الذّكْرِ) قد رَفَعَ اللهُ له ذكرَه حيْث لا يُذكر الربُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلّا ويُذكر معه رسوله ﷺ في الشهادتيْن في الآذان والإقامة وفي الصّلاة وفي كلّ ما يذكر الربّ سبحانه يُذكر معه نبيّه هذا من معاني رفع الذكر له ﷺ (وَوَضْعِ الْوِزْرِ) عنه لأنّ الله غفَرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر (وَلِأَتْبَاعِهِ مِنْ ذَلِكَ بِحَسْبِ نَصِيبِهِمْ مِنْ اتّبَاعِهِ) ﷺ (وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ).

ويقول الشّيخ: (وَهَكَذَا لِأَتْبَاعِهِ نَصِيبٌ مِنْ حِفْظِ اللّهِ لَهُمْ وَعِصْمَتِهِ إِيّاهُمْ وَدِفَاعِهِ عَنْهُمْ وَإِعْزَازِهِ لَهُمْ وَنَصْرِهِ لَهُمْ بِحَسْبِ نَصِيبِهِمْ مِنْ الْمُتَابَعَةِ) كلّما يكون الإنسانُ أكملَ في الاتّباع يكون أحقّ بحِفْظ الله ونصره وتأييده ولا يمنع ذلك أن يكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبتلي أحيانًا أتباع نبيّه ﷺ كما ابتلاه هو في حياته لرفع درجاتهم، وما يحصل لهم من الابتلاء لرفع درجاتهم وما يحصل لهم من الحفظ والنّصر والتّأييد إكرامٌ لهم.